

نَكْرُوِيَّةُ الْفَلْسُفَةِ

عِنْدَ طَهِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ

الشيخ شفيق جرادي
رئيس تحرير مجلة المحجة



يحمل طه عبد الرحمن مشروعه الفلسفى، وهو من لفتته النهضة الدينية المعاصرة، فسعى إلى التنظير لها والتأسيس لبنيتها خوفاً عليها من الفتنة والتلبيس. وهكذا تتحول الفلسفة عند طه عبد الرحمن إلى مُنظر للنهضة وموضع لها في آن معاً.

مشروع نهضوي حمله العلامة طه عبد الرحمن الذي لفتته اليقظة الدينية المعاصرة في عالمنا الإسلامي، فحمل هواجس الخوف عليها من تلبيس الفتنة بين أبناء هذه اليقظة، وهو العارف بافتقارها إلى «سند فكري محير على شروط المناهج العقلية والمعايير العلمية المستجدة، فلا نكاد نظر عندها بتأطير منهجي محكم، ولا بتنظير علمي فتح، ولا بتبصير فلسفياً مؤسّساً ... ولا يسع المسلم المتيقظ الذي ينظر في هاتين الظاهرتين المشبوهتين وهما: الغلو في الاختلاف المذهبى والخلو من السند الفكري إلا أن يتذمّر النتائج الوخيمة التي يمكن أن يترتب عليهما»^(١).

وبعد ترقب مكامن الخلل الناتج عن السبات العلمي والحضاري والوجوداني الذي تعاني منه الأمة واضطراها بالعيش المذهبى والتعصب الذى لا يقوم على استرشاد سبل الحق والصواب، نهض علامتنا في بيان الشروط التكاملية والتجددية التي عليها النفوذ إلى عمق التجربة الإيمانية والتعلقية مستحفظاً التراث بقيمه التأسيسية دون أن يرکن إلى ثوبه...

معتبراً أن «كل أمر مأصلٍ مسلمٌ به، حتى يثبت بالدليل فساده»^(٣) وعاماً على التثبيت النقيدي؛ الفاحص والمسؤول؛ من كل أمر منقول؛ إذ «كل أمر منقول معرضٌ عليه، حتى ثبت بالدليل صحته»^(٤). وفي كلتا الحالتين فقد أنماط بنفسه مسؤولية إعادة إنتاج المفاهيم بما يتلاءم مع سؤال اليوم والمعاصرة، وبروحية مجدوبة للحرية على الرغم من أن هذه الحرية لم تستتمكن من إرادته وبصيرته المسئولة والناقدة، فكانت الحرية عنده مسؤولية نقد إبداعي لا تحجب العقيدة فيه السؤال ولا تأسر تداعيات السؤال مهمة الإجابة؛ لأن السؤال ما لم يكن مسؤولاً فهو وقوف على شفا جرف هار.

وهذا ما دعا فلسفتنا العالمة إلى أن يؤسس لفقه الفلسفة بحيث يدخل عبر بوابة السؤال إلى ما قبل الفلسفة مستجمناً ملماً متخصصاً مبنياً مقيناً ناظماً كل ركن تأسيسي لفلسفة اجتهادية في عصر ضائع فيه الإبداع وروح الاجتهد الفلسفية عن أبناء وعلماء العالم العربي والإسلامي .

وذلك بعد أن اقتصرت في بحثهم وتفكيرهم على تجريدات منقوله وتأريخات ونسوا أن الفلسفة تجذب يقتضي بأصل وجوده الفاعلية والقصدية، فهي حراك يموت حينما يحمد، بل هي حياة وعمل يشكل عند الفيلسوف جزء معرفته وعلمه لتكون فقهاً يدلُّ نحو الاجتهاد. وإذا كان من المعلوم قدِيماً أن المنطق يمثل المدخل نحو الفلسفة، وبالتالي فإن العلاقة بينهما بحسب العالمة (عبد الرحمن) هي علاقة الوسيلة مع المضمن؛ فإن تتناسباً وتتجانساً خاصين ينبغي توفرهما في تلك العلاقة؛ ولما كانت الفلسفة تحمل عنده صفات الحيوية والحرارى التعاري في المخلوق بخلق القيم الإيمانية والاجتهادية، فإن علامتنا قد تحمل مسؤولية مركبة من تضاعيف.

أولهما: الجرأة في الإبداع بإنشاء منطق جديد وهي غاية توافت وتقاعدت عن قصدها الهم في غالبية أو أكثرية التجارب الفلسفية والمنطقية العربية منها والإسلامية.

ثانيهما: تجديد وإحياء ما انقطع في الكتابة الفلسفية العربية بين الفلسفة والمنطق واستبدالها بالأهون وهو إنشاء علاقة بين الفلسفة والتاريخ رأى فيها علامتنا اغتيالاً لروح التفلاسف ما دعاه إلى القول: «لذا وجدنا أن المسؤولية منوطة بأن نsem في إخراج الكتابة الفلسفية العربية من هذا الطريق الذي يؤدي إلى محظوظ التفلاسف فيها، ولا تكون بذلك بدعاً في هذا الأمر، وإنما نكون قد جددنا الصلة بالكتابية الفلسفية الأصلية التي أمَّها كبار مفكري الإسلام، ألا وهي الكتابة التي تزدوج فيها الفلسفة بالمنطق باعتباره المنهج الذي يوصلها إلى المطالب التي تطلبها»^(٤).

ثالثها: إنشاء مجال تداولي داخلي في المنطق يجعل علم الأصول جزءاً من علم المنطق بعدهما كانت الصورة معكوسه.. صانعاً عبر فصول الكتابة استقلالاً لكل واحد (من الفصول) وموضوعاً مخصوصاً موصولاً «بعضها بعض ومكملاً بعضها البعض، زاد في هذا التواصل والتكامل بينها أنها تخدم كلها غرضاً فلسفياً واحداً ينزل منها منزلة اللحمة من سداها، وهذا الغرض الفلسفى الذي وجه تحليلاتنا اللغوية وترتيباتنا المنطقية هو وجدان الكثرة الممكنة تحت الوحدة الظاهرة» ونصلح على تسمية هذا الغرض الفلسفي الخاص باسم التكوثر»^(٥).

رابعها: لتأكيد لحمة هذه العلاقة، فقد لوحظ أن علامتنا استهل كل فصل منطقي بمدخل فلسفى إضافة إلى مدخل فلسفى عام لبيان الأصل في التكوثر العقلى وبذلك فقد أنشأ تداولية خاصة للعلاقة بين البحث الفلسفى والمنطقي ليثمره بمقصد فلسفى قيمى معنائياً بذلك الطبيعة المبنية على قيم الفاعالية لفلسفة ومنطق خاص يراد منه النهوض التأسيسى النظري والمعزز المنتج للإبداع والتجدد.

خامسها: تضح كتابات علامتنا باعتراف بالآخر عبر اختلاف تعددى محکوم بالوحدة والكثرة النسبيتين المولدة لأطوار ومراتب في الفاعالية تحفظ الذات لتفعيب حيناً باستبطان في الموضوع ظاهرة حيناً آخر مستبطنـة في موضوعها فتكون هي الذات كما الموضوع.

ثم تتفاعل مع الآخر بقيم الإيمان وخلق التعارف التكاملي لتكون القيمة وذاك الخلق هما سر الانفتاح على الكونية مع حفظ الخصوصية القومية.. والقومية عند علامتنا هي القومية الحية المتسمة بخصائص ثلاثة هي «القيام» و «القام» و «القومة» والقيام هو «الحركة والعمل» لذا هو قيام جهادى واجتهادى. كما أنها لا تقوم على الماضي بمقدار ما أنها «كيف ينبغي أن يكون أو قد يباح إن القومية الحية لا تتحدد بماضى الأمة بقدر ما تتحدد بواجبها، ولا تتحدد بمحصولها بقدر ما تتحدد بمشروعها»^(٣) لذا فإنها تتطوى على «مجموعة القيم التي يأخذ بها القوم وتتقسم هذه القيم المعنوية إلى قسمين اثنين: القيم الخاصة، وهي التي يتفرد بها القوم ولا يشاركتها فيها غيرهم، والقيم المخصصة وهي القيم العامة التي يشتركون فيها مع غيرهم»^(٤) وبعد هذا تأتي القومية على بكرة أبيهم»^(٥) إذن هو «اجتماع القوم على دوام العمل وفق القيم العليا، وإن القومية هي بلوغ هذا العمل القيمي الغاية وشموله لجميع أفراد القوم»^(٦).

سادسها: بناءً على ما مر فإن ما يدفع شطط العالمية الفلسفية كأحادية مستبدة هو مثل هذه القومية الحية للأمة التي عليها أن تسهم في إنشاء كونية إيمانية تعارفية متواصلة عبر تطهير العقل والإرادة والروح الملكوتية في عالم مستعرق بعقل الملك التعاوني الأداتي والتفاصيلي، ومن هنا جاء مشروع حجاج روح الحداثة وسؤال الأخلاق كسؤال يستدعي اليقظة التكاملية كما جاء

جواب الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري كجواب الإيمان بمعنىه الأشمل والأخلاق بمعناها الأكمل وذلك عبر تحسير التواصل بين خصوصية الأمة والواقع الكوني...

بتحكيم نقدية إيمانية على مقتضى النقد العلمي. عبر تفعيل إيماني وتأصيل أخلاقي وجهد اكتمالي... مستهدياً بالذات الإلهية، مسترشداً بصفاتها، مستمسكاً بالقيم المثلث في صوغ هوية تعلقية تواصلية تثق بالله، كما الذات، كما الناس؛ تثير ما أظلم بنور الإخلاص والمحبة والترابط والمجاهدة والاجتهداد.

لتنهض بالفلسفة والمنطق والأخلاق والعمل نهوض من يضج وينضح بالحرك والقيم الوحيانية والإنسانية، داعياً الأمة إلى مقاومة كل مشقة تعترض سبيلها كدعوته لها إلى فاعلية في صوغ نموذجها الباني لها، وللكون بإعمار النفس والروح بالإيمان.. واعمار الأرض بالإحسان...

الهوامش

- (١) طه عبد الرحمن، تجديد العقل الديني، صفحه ٩.
- (٢) طه عبد الرحمن، روح الحداثة، ص ١٤.
- (٣) المصدر نفسه، ص ١٣.
- (٤) طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، ص ١٧.
- (٥) المصدر نفسه، ص ١٨.
- (٦) طه عبد الرحمن، الحق العربي، ص ٦٨.
- (٧) المصدر نفسه، ص ٦٩.
- (٨) المصدر نفسه، ص ٧٠.
- (٩) المصدر نفسه، ص ٧٠